﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ٥٩ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ٦١﴾ [ص: 59 - 61]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذكرِ العَذابِ الجَسَديِّ إلى ذكرِ العَذابِ النَّفسي والقَوليِّ

لَمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ حالَ الطّاغين في النّارِ، وهم سادةُ الكفرِ والشِّرك والفسادِ في الدُّنيا، ناسبَ ذكرُ من سيكون معهم في النّارِ، ممَّن يُشابِهُهُم في أفعالِهم واعتقادِهم، فذكرَ أنْواعًا من العِقابِ، والعَذابِ النَّفسيِّ بالتَّلاوُمِ والتَّباغُضِ، إذْ لَمّا كانَ ممّا أفْهَمَهُ الكِتابُ في هَذا الخِطابِ أنَّ الطّاغينَ الدّاخِلينَ إلى جَهَنَّمَ أصْنافٌ كَثيرَةٌ؛ وكانَتِ العادَةُ جاريَةً بأنَّ الأصْنافَ إذا اجْتَمَعوا كانَتْ مُحاوَراتٌ؛ ولا سيَّما إنْ كانوا مِنَ الطُّغاةِ العُتاةِ؛ تَحَرَّكَ السّامِعُ إلى تَعَرُّفِ ما يَدُلُّ عَلى تَقاوُلِهِمْ بِأقْبَحِ المُقاوَلَةِ؛ وهو التَّخاصُمُ النّاشِئُ عَنِ التَّباغُضِ والتَّدابُرِ؛ الَّذي مِن شَأْنِهِ أنْ يَقَعَ بَيْنَ الَّذينَ دَبَّروا أمْرًا فَعادَ عَلَيْهِمْ بِالوَبالِ؛ في أنَّ كُلًّا مِنهم يُحيلُ ما وقَعَ بِهِ العَكْسَ عَلى صاحِبِهِ؛ وذَلِكَ أشَدُّ لِعَذابِهِمْ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَوۡجٞ﴾ (فوج) أصل يدُلُّ عَلَى تَجَمُّعٍ. مِنْ ذَلِكَ الفَوْجُ، الجَماعَةُ مِنَ النّاسِ[2]، فَهوَ اسْمُ جَمْعٍ كَقَومٍ ورَهْطٍ. والجَمْعُ أفْواجٌ، وجَمْعُ الجَمْعِ أفْواجٌ وأفاوِجُ وأفاويجُ[3]. والمَعْنَى المحْوَرِيُّ تَجَمُّعٌ مُنْفَصِلٌ عنْ تَجَمُّعٍ غَيْرِه بِقوَّةٍ وانْتِشارٍ ما[4]. والفَوْجُ: الجَماعَةُ المارَّةُ

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 405 - 409.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فوج).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فوج).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فوج).

المُسْرِعَةُ، قالَ تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: 2][1].
والمُرادُ بالفَوجِ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ لِرُؤَساءِ الطّاغينَ إذا دَخَلوا النّارَ، واقْتَحَمَها مَعَهم فَوْجٌ كانوا يَتْبَعونَهم في الكُفْرِ والضَّلالَةِ[2].

2) ﴿مَرْحَبًا﴾ (رحب) أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عَلَى السَّعَةِ. مِنْ ذَلِكَ الرُّحْبُ. ومَكانٌ رَحْبٌ. وقَوْلُهُمْ في الدُّعاءِ: مَرْحَبًا: أَتَيْتَ سَعَةً[3]، وقَوْلُهُمْ: مَرْحَبًا وأَهْلًا: أي أَتَيْتَ سَعَةً، وأَتَيْتَ أَهْلًا، فاسْتَأْنِس ولا تَسْتَوْحِشْ[4]. وقَوْلُه تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ﴾ دُعاءٌ مِنَ المَتْبوعينَ عَلى أَتْباعِهِم، سَواءٌ كانَ قائِلُ ما تَقَدَّمَ المَلائِكَةَ عليهم السلام أَوْ بَعْضَ الرُّؤَساءِ لِبَعْضٍ[5]، يَقولونَ لَهُم: لا اتَّسَعَتْ بِكُم مَداخِلُكُم[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مـائـدةُ الـكـفّـار في جهنَّم جَـدَلٌ وتلاوُمٌ وتَباغُضٌ

بَيَّنَتِ الآياتُ الكريماتُ ما يَقولُهُ أَهْلُ النّارِ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَلَى سَبيلِ النَّدَمِ والتَّحَسُّرِ والتَّقْريعِ، إذْ يَقولُ الكُفّارُ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ بَعْدَ أنْ رَأَوْا غَيْرَهُم يُلْقَى في النّارِ مَعَهُم، أوْ قالَتِ المَلائِكَةُ لَهُم عَلى سَبيلِ التَّقْريعِ والتَّأْنيبِ: هذا جَمْعٌ كَثيرٌ مِنْ أَتْباعِكُم وإخْوانِكُم في الضَّلالِ داخِلٌ مَعَكُم النّارَ وعَلَى غَيْرِ اخْتيارٍ مِنْهُ، وإنَّما يُساقُ إلَيْها سَوْقًا في ذِلَّةٍ ومَهانَةٍ. وهُنا يَقولُ زُعَماءُ الكُفْرِ: لا مَرْحَبًا ولا أَهْلًا بِهَؤُلاءِ الدّاخِلينَ في النّارِ مَعَنا، وهُنا يَحْكي القُرْآنُ رَدَّ الفَوْجِ المُقْتَحِمِ للنّارِ مَعَهُم فَيَقولُ الدّاخِلونَ في النّارِ: بَلْ أَنْتُم الَّذينَ لا مَرْحَبًا بِكُم، وإنَّما الضّيقُ والهَلاكُ لَكُم. فَرَدّوا قائلينَ: لا مَرْحَبًا بِكُم لَأَنَّكُم أَنْتُم

(1) الرّاغب، المفردات: (فوج).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 233.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (رحب).
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/ 230.

أيُّهَا الزُّعَماءُ الَّذينَ تَسَبَّبْتُم لَنا دُخولَ النّارِ مَعَكُم، إذْ دَعَوْتُمونا في الدُّنْيا إلَى الكُفْرِ فاتَّبَعْناكُم، فَبِئْسَ القَرارُ والمَنْزِلُ لَنا ولَكُم جَهَنَّمُ، ثُمَّ يُضيفونَ إلَى ذَلِكَ قَوْلَهُم: يا رَبَّنا مَنْ كان سَبَبًا في نزولِ هذا العَذابِ بِنا، فَزِدْهُ عَذابًا مُضاعَفًا في النّارِ، ونظيرُ هذه الآيةِ قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: 67 - 68][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ الفَصْلِ في الجُمْلَةِ:

ابتداءُ الكلامِ لحكايةِ حالِ الاختصامِ

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ قَولَ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ لأنَّ الجملةَ ابتداءُ كلامٍ، كَلامٍ حُكِيَ بِهِ تَخاصُمُ المُشْرِكينَ في النّارِ فيما بَيْنَهم إذا دَخَلوها، كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى في آخِرِهِ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: 64]، وجَرَيانُهُ بَيْنَهم ليَزْدادوا مَقْتًا بِأنْ يُضافَ إلى عَذابِهِمُ الجُسْمانيِّ عَذابُ أنْفُسِهِمْ بِرُجوعِ بَعْضِهِمْ عَلى بَعْضٍ بِالتَّنْديمِ وسوءِ المُعامَلَةِ[2].

غَرَضُ حَذْفِ فِعْلِ القَوْلِ:

تحريكُ الأذهانِ لمعرفةِ محذوفاتِ القرآنِ من دواعي ترسيخِ الأفهامِ

حَذَفَ النَّظْمُ الحكيمُ فِعْلَ القَوْلِ منْ قَوْلِه تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾، ذَلِكَ أنَّ جُمْلَةَ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ مَقولِ قَوْلٍ مُقَدَّرٍ، أي: قالتِ المَلائِكَةُ أوِ الخَزَنَةُ[3]، أو قال الطّاغونَ بَعْضُهم لِبَعْضٍ، فَأُسْلوبُ الكَلامِ يَقْتَضي مُتَكَلِّمًا صادِرًا مِنهُ، وأُسْلوبُ المُقاوَلَةِ يَقْتَضي أنَّ المُتَكَلِّمَ بِهِ هُمُ الطّاغونَ الَّذينَ لَهم شَرُّ المَآبِ؛ لِأنَّهم أساسُ هَذِهِ القَضيَّةِ؛ فالتَّقْديرُ: يَقولونَ، أيْ: الطّاغونَ، بَعْضُهم لِبَعْضٍ: هَذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكم، أيْ: يَقولونَ مُشيرينَ إلى

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 287.
(3) الخطيب ومصلوح وآخرون، التّفصيل: 23/ 302 - 303.

فَوْجٍ مِن أَهْلِ النّارِ أُقْحِمَ فيهِمْ لَيْسوا مِن أَكْفائِهِمْ ولا مِن طَبَقَتِهِمْ وهم فَوْجُ الأَتْباعِ مِنَ المُشْرِكينَ الَّذينَ اتَّبَعوا الطّاغينَ في الحَياةِ الدُّنْيا، وذَلِكَ ما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أيْ: أَنْتُمْ سَبَبُ إحْضارِ هَذا العَذابِ لَنا. كما قال تعالى في آخِرِ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: 64]. وفي حَذْفِ فِعْلِ القَوْلِ بيانٌ لاحْتِدامِ النِّزاعِ بينَ أَهْلِ النّارِ أعْجَلَهُم عنِ النُّطْقِ بِفِعْلِ القَوْلِ، أوْ لِبيانِ عُنْصُرِ المُفاجأةِ والذُّهولِ.

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ:

تَصْويرُ مَشْهَدِ مُبادَرَةِ الكُفّارِ إلى التَّلاوُمِ والتَّخاصُمِ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الجليلُ اسمَ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ للدّلالَةِ على الانْتِقالِ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، إنْهاءً لِلْغَرَضِ السّابِقِ واهتمامًا بالغرض اللّاحِقِ[1] وهو هنا الإسْراعُ بدُخولِ فَوجِ الكفرة والطغاة إلى ساحَةِ النّيرانِ، فَبِمُجَرَّدِ ظُهورِهِ إلى ساحَةِ جَهَنَّمَ تَوَجَّهَتِ المَلائِكَةُ لَهُم بهذا الحديثِ، أو شَرَعَ الطّاغونَ المُكَذِّبونَ في الحديثِ إلى بَعْضِهِم بَعْضًا في إشارَةٍ إلى شِدَّةِ البُغْضِ والتَّلاوُمِ بينَهم، فَلا يُمْهِلُ بَعْضُهُم بعْضًا.

دلالةُ اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿فَوْجٌ﴾:

الفَوْجُ الجَماعَةُ الكَثيفَةُ العَدَدِ، المُنْدَفِعَةُ بِسُرْعَةٍ، المُتَتالِيَةُ في الدُّخولِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ استِعْمالَ مُفْرَدَةِ الفَوْجِ، لأنَّ كَلِمَةَ فوج اسْمُ جَمْعٍ كَقَوم ورَهْطٍ[2]، فَهيَ تَدُلُّ على تَجَمُّعٍ مُنْفَصِلٍ عنْ تَجَمُّعٍ غَيْرِه بِقوَّةٍ وانْتِشارٍ ما. وهي تَنْفَرِدُ ببعضِ الدّلالاتِ التي لا توجدُ في غيرِها، فالفَوْجُ الجَماعَةُ الكَثيرَةُ، الّتي تدخلُ وتتلوها أخرى، فدلَّ اللّفظُ على أنَّ هناك أفواجًا تدخلُ النّارَ كلَّما دخل فوجٌ تَبِعَه آخرُ، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 232.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فوج).

لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ [الأعراف: 38].

بلاغةُ استعمال مفردةِ ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾:

تهويلُ شأنِ أهل النّار بدفعِهم مرَّةً واحدة

وَصَفَ النَّظْمُ الجَليلُ الفَوْجَ بِصِفَةِ الاقْتِحام في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ للدّلالَةِ على أنَّ الطّاغينَ وأتْباعَهُم يَدْخُلونَ النّارَ جَماعاتٍ كَثيفَةً، مُشاةً مُسْرِعينَ؛ ويَكونونَ مِن شِدَّةٍ ما تَدْفَعُهُمُ الزَّبانيَةُ عَلى هَيْئَةِ الواثِبِ لِشِدَّةِ هَوانِهِم وذُلِّهِم، إذِ الاقْتِحامُ رُكوبُ الشِّدَّةِ والدُّخولُ فيها، والقُحْمَةُ: الشِّدَّةُ[1].

نكتةُ إفْرادِ ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾:

الإيماءُ إلى أنَّ الاقتحامَ سيكون دفعةً واحدةً

أُفرِد وصفُ الفوجِ بأنَّه ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ إشارَةً إلى أنَّهم في الموافَقَةِ فيهِ والتَّسابُقِ كَأنَّهم نَفْسٌ واحِدَةٌ، أي: كأنَّهُم فَردٌ واحدٌ رامٍ بِنَفْسِهِ في الشِّدَّةِ فُجاءَةً بِلا رَوِيَّةٍ[2]، وما ذاكَ إلّا لِشِدَّةِ عَذابِهم وبُؤْسِهم، ولهذا الإيماءِ لم يقل: (هذا فوجٌ مقتحمون) ليرجعَ الجمعُ على معنى الفوج.

غَرَضُ تَنْكيرِ ﴿فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾:

تهويـنُ شأنِ الكُفّارِ وتحقيرُ مآلِهم

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ جاءتْ كَلِمَتا ﴿فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ نَكِرَتَينِ لِبيانِ حَقارَةِ شأنِ الطُّغاةِ وأتباعهم، وللتَّهوينِ منْ قَدْرِهِم، فَحَتَّى لو كانوا جَماعَةً كثيفَةَ العَدَدِ ضَخْمَةَ المِقْدارِ فَلا شَأنَ لَهُم عِنْدَ اللّهِ ولا قَدْرَ، ما داموا قدْ أعْرَضوا عن اللّهِ وعنْ دَعْوَةِ الحقِّ الهاديَةِ إلى سَواءِ السَّبيل.

دلالَةُ استعمالِ الظَّرْفيَّةِ:

اشْتِراكُ المَصيرِ بسوءِ الاتِّباعِ في الجَهْلِ والضَّلالِ

أفادَ التَّعبيرُ بالظَّرفيَّةِ ﴿مَّعَكُمْ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أنَّ المُتَكَلِّمينَ مَتْبوعونَ سابقونَ في دُخولِ النّارِ، وأنَّ

(1) الزّمخشريّ، الكشاف: 4/ 101، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 407.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 407.

الفَوْجَ المُقْتَحِمَ أتْباعٌ لَهم لاحقونَ بهم، فَأُدْخِلوا فيهِمْ مَدْخَلَ التّابِعِ مَعَ المَتْبوعِ بِعَلاماتٍ تُشْعِرُ بِذَلِكَ[1]. وفيهِ دلالَةٌ على اشْتِراكِ المَصيرِ بسوءِ الاتِّباعِ، فهذا الجَمْعُ الكَثيفُ قَدِ اقْتَحَمَ مَعَكُمُ النّارَ كَما كانوا قَدِ اقْتَحَموا مَعَكم في الجَهْلِ والضَّلالِ[2]. فاقْتِحامُ المَتْبوعينَ النّارَ مَعَ الأتْباعِ يُنْبِئُ عَنِ المُشارَكَةِ في رُكوبِ كُلٍّ مِنَ الطّائِفَتَيْنِ قَحْمَةَ النّارِ، ومُقاساةِ شِدَّتِها ووَيْلاتِها وعَذابِها[3].

موقعُ جملةِ ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْۚ﴾:

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ قَولَه تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْۚ﴾ عنِ الجُمْلَةِ السّابِقَةِ علَيْها، وهيَ قولُه: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ وهي إمّا أن تكون جملة اعتراضيّةً استئنافيَّةً سيقَتْ للدُّعاءِ عليهم والتّهوينِ من أمرهم، لأنَّ الرحبَ هو السَّعَةُ، وإمّا أن تكون حاليَّةً، والتَّقدير: مقولًا لهم: لا مرحبًا بهم[4].

أشدُّ أهلِ النّارِ عداوةً للدّاخلين فيها همُ المتبوعون

نُكْتَةُ إيثارِ نَفْيِ التَّرْحيبِ علَى إثْباتِ الذَّمِّ:

عَبَّرَ النَّظْمُ البَليغُ عنِ المُقاوَلَةِ الَّتي جَرَتْ بينَ الأتْباعِ والمَتْبوعينَ بقَوْلِه: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْۚ﴾ بِنَفْيِ التَّرْحيبِ، دونَ إثباتِ الذَّمِّ، كأنْ يَقولوا لهُم: (بِئْسًا لَكُم)، ولَكِنَّ البيانَ القُرآنيَّ قَدْ آثَرَ التعبيرَ بِنفي التَّرْحيبِ، لأنَّ نَفْيَ التَّرحيبِ بالنِّسْبَةِ لِعُرْفِ هؤلاءِ السادَّةِ أشَدُّ دلالَةً على الانْتِقاصِ والاحْتِقارِ والتَّقْليلِ، إذْ إنَّ جملَةَ ﴿لَا مَرْحَبًا﴾ تَقولُها العربُ إذا أرادوا كَراهيَةَ الوافِدِ والدُّعاءَ عَلَيْهِ، كَأنَّهم أرادوا النَّفْيَ بِمَجْموعِ الكَلِمَةِ، ومَعْنى الرَّحْبِ: السِّعَةُ المَجازيَّةُ، وهي الفَرَحُ ولِقاءُ المَرْغوبِ في ذَلِكَ المَكانِ بِقَرينَةِ أنَّ نَفْسَ السِّعَةِ لا تُفيدُ الزّائِرَ، وإنَّما قالوا ذَلِكَ لِأنَّهم كَرِهوا أنْ يَكونوا هم وأتْباعُهم في مَكانٍ واحِدٍ

نَفْيُ التَّرْحيبِ أشَدُّ دَلالَةً على التَّحْقيرِ والانْتِقاصِ وكراهيةِ القادمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 287.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 404.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 375.

جَرْيًا عَلى خُلُقِ جاهِليَّتِهِمْ مِنَ الكِبْرياءِ واحْتِقارِ الضُّعَفاءِ[1]. فَهي كَلِمَةٌ واقِعَةٌ في أتَمِّ مَواقِعِها؛ لِأنَّها دالَّةٌ عَلى التَّضَجُّرِ والبِغْضَةِ؛ مَعَ الصِّدْقِ في أصْلِ مَدْلولِها؛ الَّذي هو مُصادَقَةُ الضّيقِ؛ فَهوَ (مَفْعَلٌ) مِن (الرَّحْبِ) الَّذي هوَ مَصْدَرٌ ميميٌّ؛ وهو السَّعَةُ؛ أيْ: لا كانَ بِهِمْ سَعَةٌ أصْلًا؛ ولا اتَّسَعَتْ بِهِمْ هَذِهِ الأماكِنُ؛ ولا هَذِهِ الأزْمانُ؛ ولا حَصَلَتْ لَهم ولا بِهِمْ راحَةٌ[2].

وَجْهُ اتِّساقِ كَلِمَةِ التَّرْحيبِ لِكَلِمَةِ الاقْتِحامِ:

اجتماعُ الهوانِ من جِهةِ الملائكةِ والمتبوعين

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أشارَ النَّظْمُ الجَليلُ إلى شِدَّةِ سَوْقِ الزَّبانيَةِ لهؤلاءِ الأتْباعِ إلى قَعْرِ جَهَنَّمَ، فَهُم يدْفَعونَهم بِعُنفٍ، ولَكِنَّهُم عنْدَما يَصلونَ إلى هنالِكَ لا يَجِدونَ سوى التَّحقيرِ والمَهانَةِ من عَدَمِ التَّرْحيبِ في قولِ الأسيادِ ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾، فَبيَّنَ النَّظْمُ الحكيمُ شِدَّةَ المُفارَقَةِ والمُقابلَةِ بينَ الحالين، وهيَ مُفارَقَةٌ تُؤَكِّدُ للمُتَلَقّي مَدى هَوانِهم وذُلِّهم، على خَزَنَةِ جَهَنَّمَ، وعلى الأسيادِ الَّذينَ أضاعَ هؤلاءِ الأتْباعُ أعْمارَهُم سُدًى في اتِّباعِهم في غَيِّهِم وضَلالِهم[3].

نَوْعُ الباءِ ودَلالَتُها:

البـاءُ للبيـانِ وقيلَ للتَّعْديَةِ

جاءَتِ الباءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ بَيانًا لِلْمَدْعوِّ عَلَيْهِم، وتَكونُ الباءُ لِلْبَيانِ كاللّامِ في نَحْوِ: (سُقْيًا لَهُ)، وكَوْنُ اللّامِ دونَ الباءِ كَذَلِكَ دَعْوى مِن غَيْرِ دَليلٍ، أيْ ما أتَوْا بِهِمْ رُحْبًا وسَعَةً، وقيلَ: الباءُ لِلتَّعْديَةِ فَمَجْرورُها مَفْعولٌ ثانٍ لِأتَوْا، وهو مَبْنيٌّ عَلى زَعْمِ أنَّ اللّامَ لا تَكونُ لِلْبَيانِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 289.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 8/ 641، والسَّمَرقَنْديّ، بحر العلوم: 3/ 172.
(3) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 408.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207.

نُكْتَةُ فَصْلِ ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾:

تعليلُ نفيِ التَّرحيبِ ببيانِ الحالِ وسوءِ المآلِ

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ جُمْلَةَ ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ عَنْ قَولِه تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْۚ﴾، لأنَّها جاءتْ بَيانًا وتعليلًا لِلْقَولِ السّابق، فامتَنَعَ الوَصلُ لِكَمالِ الاتِّصالِ، فكانَ هَذا القولُ مِن جِهَةِ المَلائِكَةِ بيانًا لِاسْتِحْقاقِهِمُ الدُّعاءَ عَلَيْهِم، أوْ وصْفًا لهم بِما ذُكِرَ، أوْ تَعْليلًا مِنَ الرُّؤَساءِ لِذَلِكَ، والكَلامُ عَلَيْهِ يَتَضَمَّنُ الإشارَةَ إلى عَدَمِ انْتِفاعِهِمْ بِهِمْ[1]، فَأكَّدَ ما كانَ اسْتَقَرَّ في نُفوسِهِمْ؛ وتَطاوَلَ عَلَيْهِ الزَّمانُ؛ مِن إنْكارِهِمْ لَهُ[2]، والتفتَ الطاهر ابن عاشورٍ إلى أنَّ الخَبَرَ مُسْتَعْمَلٌ في التَّضَجُّرِ مِنهم، أيْ: إنَّهم مُضايقونَنا في مَضيقِ النّارِ كَما أوْمَأ إلَيْهِ قَوْلُهم ﴿مُّقْتَحِمُ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْۚ﴾[3].

اتِّساقُ اسْتِعْمالِ ﴿صَالُواْ﴾ مَعَ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾:

بينَ كَلِمَتَي ﴿صَالُواْ﴾ و﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ جَرْسٌ مُتَناغِمٌ، فالكَلِمَتانِ من جَذْرٍ واحد، الدّالِ على دُخولَ النّارِ، فمَن صَليَها صادَفَ مِنَ الضّيقِ ما لَمْ يُصادِفْهُ أحَدٌ؛ وآذى كُلَّ مَن جاوَرَهُ[4].

نوعُ إضافَةِ ﴿صَالُواْ﴾ إلَى ﴿ٱلنَّارِ﴾ ودلالتُها:

تأكيدُ عذابِ الطّاغين في جهنَّمَ واصْطِلائِهم بنارِها

أضافَ النِّظْمُ الحكيمُ اسمَ الفاعِلِ ﴿صَالُواْ﴾ إلى ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ أي: هم داخِلوها كَما دخلناها، ومُلاقونَ حَرَّها وشِدَّتَها، فالإضافةُ بمعنى حرفِ الظّرفيّةِ، وفي هذه الإضافَةِ نوع من التّحقير لشأنهم[5] لدخولِهم جهَنَّمَ واصْطِلائِهم بنارِها؛ ذَلِكَ أنَّ اقْتِحامَهُم النّارَ يُفيدُ أنَّ عَذابَهُم فيها أمْرٌ لازِمٌ حَتْمِيٌّ، ولَكِنَّ البيانَ القُرآنيَّ آثرَ التَّصْريحَ بِه لتصوير مدى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 408.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 289.
(4) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 408.
(5) القَزْوِينيّ، الإيضاح: 2/ 36.

تحقيرِهم بتلاوُمِهم فيما بينهم، وشَماتَةِ بَعْضِهِم بالآخرِ، على ما اسْتَحَقّوه من عذابٍ.

وَجْهُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾ دون ﴿جَهَنَّمَ﴾:

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ التَّعبيرَ عنْ مآلِ الطّاغينَ وأتْباعِهم بمُفْرَدَةِ ﴿ٱلنَّارِ﴾ دونَ مفْرَدَةِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ الَّتي سَبَقَ استعمالُها في السّياقِ، وذلِكَ لِمُناسَبَةِ مُفْرَدَةِ ﴿ٱلنَّارِ﴾ لفِعْلِ الصَّلْيِ، فإنَّ فِعْلَ الصَّلْيِ هنا بمعناه، أمّا ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ فمعناها الدُّخول مع الاحتراق، فناسَبَ ذِكْرُ جهنَّمَ باعتبارِها تُدخَل، أمّا هنا في ﴿صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ فناسبَ ذكرُ النّارِ باعتبارِها هي الصّالية والحارقة لأهلِها.

الصَّلْيُ يأتي بمعنى الدُّخول في جهنّم مع الحرقِ بالنّار

بَلاغَةُ الفَصْلِ بين جُملِ المحاورات:

فَصَل النَّظْمُ الحكيمُ بينَ جُمَلَةِ ﴿قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾، والجُمْلَةِ السّابِقَةِ عليها، وهيَ: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾، لِشِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ بيْنَهُما، فلا حاجَةَ للعَطْفِ، إذْ جاءتِ الجُمْلَةُ رَدًّا من الأتْباعِ على المَتْبوعينَ، فكأنّ سائلًا قد سأل: فبماذا أجابوهم؟ فجيءَ بِحِكايَةِ قَوْلِهِمْ عَلى طَريقَةِ المُحاوَراتِ فَلِذَلِكَ جُرِّدَ من حَرْفِ العَطْفِ[1]، وفيه بيانٌ لِسقوطِ هَيْبَةِ المَتْبوعينَ وتَدَنّي درَجَتِهِم في نُفوسِ أتْباعِهم بسببِ سوءِ المصيرِ وشُؤْمِ المآلِ، فَهُم يَرُدّونَ عليْهِم القولَ بِمِثْلِه، والدَّعاءَ والشَّماتَةَ بأشَدَّ مِنْهُما.

سقوطُ هَيْبَةِ المَتْبوعينَ في نُفوسِ أتْباعِهم بسببِ سوءِ المصيرِ وشُؤْمِ المآلِ

دلالَةُ ذِكْرِ فِعْلِ ﴿قَالُواْ﴾:

صَرَّحَ النَّظْمُ الحكيمُ بِفِعْلِ القَولِ في جُمْلَةِ: ﴿قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ اهْتِمامًا بِبَيانِ ردِّ الأتْباعِ على المَتْبوعينَ؛ لأنَّه رَدٌّ على قَوْلٍ سابِقٍ قيلَ لَهُم. وفيه تَصْريحٌ لِجُرْأةِ الأتْباعِ على المَتْبوعينَ، وتأكيدُ هَذِه الجُرْأةِ بِفِعْلِ القَولِ والتَّنْصيصِ عَلَيه، قَصْدًا مِنهم إلَى

تأكيدُ جُرْأةِ الأتْباعِ بِفِعْلِ القَولِ والتَّنْصيصِ عَلَيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 289.

إظْهارِ صِدْقِهِمْ بِالْمُخاطَبَةِ مَعَ الرُّؤَساءِ، والتَّحاكُمِ إلى الخَزَنَةِ طَمَعًا في قَضائِهِمْ بِتَخْفيفِ عَذابِهِم، أوْ تَضْعيفِ عَذابِ خُصَمائِهِمْ[1]، ولبيانِ وجودِ مقولَيْنِ وقائِلَيْنِ كلٌّ منهم يردُّ على الآخرِ.

نَوْعُ ﴿بَلْ﴾ وبَلاغَتُها في الجُمْلَةِ:

الزَّعَماءُ المُضِلّونَ أوْلى بالشَّتْمِ والتَّحْقيرِ

جاءتْ ﴿بَلْ﴾ في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾، على أصْلِ وجْهِها لِلْإضْرابِ الإبْطالِيِّ؛ وهو الّذي يَقتضي نَفْيَ الحُكْمِ السّابقِ في الكلامِ قبلَ ﴿بَلْ﴾، والقَطْعَ بأنَّه غيرُ واقعٍ، وأنَّ مُدَّعيه كاذبٌ، وأنَّ الانْصرافَ عنه واجبٌ إلى حُكْمٍ آخرَ يَجيء بعدَها[2]، لذا فهيَ هُهُنا لِرَدِّ الشَّتْمِ عَلَيْهِمْ وأنَّهم أوْلى بِهِ منهم، بَعْدَ أنْ سَمِعَهُمُ الأتْباعُ، فَقالوا لَهُم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ إضْرابًا عَنْ كَلامِهِم، أيْ: أنْتُمْ أوْلى بالشَّتْمِ والكَراهيَةِ بِأنْ يُقالَ لكم: لا مَرْحَبًا بِكم، لِأنَّكُمُ الَّذينَ تَسَبَّبْتُمْ لِأنْفُسِكم ولَنا في هَذا العَذابِ بِإغْرائِكم إيّانا عَلى التَّكْذيبِ والدَّوامِ عَلى الكُفْرِ[3].

نُكْتَةُ ذِكْرِ ضميرِ الخِطابِ ﴿أَنتُمْ﴾:

توكيدُ تَّنَصُّلِ الأتْباعِ من المَتْبوعينَ وجُزْأتِهِم عليْهِم

صَرَّحَ النَّظْمُ الحكيمُ في جُمْلَةِ: ﴿قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ بِذِكْرِ ضَميرِ المُخاطَبينَ لِلتَّنَصُّلِ من شَتْمِهِم، أيْ: أنْتُمُ المَشْتومونَ، أيْ: أوْلى بِالشَّتْمِ مِنّا، وقَدِ اسْتُفيدَ هَذا المَعْنى من حَرْفِ الإبْطالِ ﴿بَلْ﴾ لا مِنَ الضَّميرِ ﴿أَنتُمْ﴾؛ لِأنَّ الضَّميرَ لا مَفْهومَ لَهُ، ولِأنَّ مَوْقِعَهُ هُنا لا يَقْتَضي حَصْرًا ولا تَقْوِيَةً؛ لِأنَّهُ مُخْبَرٌ عَنْهُ بِجُمْلَةٍ إنْشائِيَّةٍ، أيْ: أنْتُمْ يُقالُ لَكم: لا مَرْحَبًا بِكم[4]. ولكنَ يُمْكِنُ القولُ: إنَّ إظْهارَ الضَّميرِ ﴿أَنتُمْ﴾ قَدْ قَوَّى هَذِه الدَّلالَةَ، فإنَّ النَّظْمَ لو قال: (بَلْ لا مَرْحَبًا بِكُم) لَمْ يُكنِ في المَعنى منَ القوَّةِ والتَّنصيصِ على جُرْأةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 233.
(2) حسن، النحو الوافي: 3/ 623.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 289.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 289.

الأتْباعِ كما في قَولِه: ﴿قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْۖ﴾، فَدَلَّ ذلِكَ على أنَّ الإظْهارَ في هذا المَوْضِعِ قدَ أكَّدَ دلالَةَ حَرْفِ الإضرابِ.

دلالةُ اسْتِعْمالِ ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْۖ﴾ النَّظيرَةِ لِكَلِمَةِ الأسْيادِ:

الإيحاءُ بغلواءِ النُّفوسِ وعظيمِ الخديعةِ التي ذاقها الأتباعُ

في جُمْلَةِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْۖ﴾ أتَى النَّظْمُ بالكَلِمَةِ نَفْسِها الَّتي جابَهَ بِها المَتْبوعونَ أتْباعَهم، وإذا كانَ قَوْلُ: مَرْحَبًا، إنْشاءَ دُعاءٍ بالخَيْرِ، كانَ نَفْيُهُ إنْشاءَ دُعاءٍ بِضِدِّه[1]؛ لِتَكونَ المواجَهَةُ لِمَن كانوا لا يَقْدِرونَ عَلى مواجَهَتِهِمْ في الدُّنْيا بِقَبيحٍ أشْفى لِصُدورِهِم، حَيْثُ تَسَبَّبوا في كُفْرِهِم، وأنْكى لِلرُّؤَساءِ[2]، المُتَجَبِّرينَ في الدُّنْيا المُتَعاظِمينَ بِجاهِهِم، وفي هذا الرَّدِّ المُطابِقِ في كلماتِه ما يوحي بغلواءِ النُّفوسِ، والشُّعورِ بعظيمِ الخديعةِ الّتي مورِسَتْ عليهم في الدُّنيا، وذاقوا مرارتَها في الآخرةِ.

نَوْعُ الباءِ ودلالتُها البيانيّة:

البـاءُ بَيـانيَّةٌ توضِّحُ المقصودَ بالمَدْعوِّ عَلَيْهِم

جاءَتِ الباءُ في ﴿بِكُمْۖ﴾ منْ جُمْلَةِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْۖ﴾ بَيانيَّةً، كَما كانَ قَوْلُهُ ﴿بِهِمْۚ﴾ بَيانًا لِمَن وُجِّهَ الدُّعاءُ لَهم، أيْ: إيضاحًا لِلسّامِعِ أنَّ الدُّعاءَ عَلى أصْحابِ الضَّميرِ المَجْرورِ بالباءِ، فَكانَتِ الباءُ فيهِ لِلتَّبْيينِ، أي: هيَ بَيانٌ لِمَدْعوٍّ عَلَيْهِمْ. وأشارَ الهَمَذانيُّ إلى أنَّ مَعنَى البيانِ مُتَوَلِّدٌ من مَعْنى السَّبَبيَّةِ. وذَهَبَ الطّاهر ابن عاشورٍ إلى أنَّ مَعْنَى البيانِ مُتَوَلِّدٌ من مَعْنى المُصاحَبَةِ بِطَريقِ الاسْتِعارَةِ التَّبَعيَّةِ، ثُمَّ غَلَبَ اسْتِعْمالُ الباءِ في مِثْلِهِ في كَلامِهِم، فَصارَ كالحَقيقَةِ؛ لِأنَّهُ لَمّا صارَ إنْشاءَ دُعاءٍ لَمْ تَبْقَ مَعَهُ مُلاحَظَةُ الإخْبارِ بِحُصولِ الرَّحْبِ مَعَهم أوْ بِسَبَبِهِمْ كَما يَتَّجِهُ بِالتَّأمُّلِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 289 - 290.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 169.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 290.

دلالَةُ اسْتِعْمالِ ضَميرِ الغَيْبَةِ في ﴿بِهِمْ﴾ والخِطابُ في ﴿بِكُمْ﴾:

اختِقارُ المَتْبوعينَ للأَتْباعِ، وتَشَفّي الأَتْباعِ من المَتْبوعينَ

استَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ ضَميرَ الغائبينَ ﴿بِهِمْ﴾ في خِطابِ المَتْبوعينَ لأَتْباعِهم في جُملَةِ: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾، وأمّا في خِطابِ الأَتْباعِ للمَتْبوعينَ، فقد استَعْمَلَ ضَميرَ المُخاطَبينَ ﴿بِكُمْ﴾، فدَلَّ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلافِ الخِطابِ المَوَجَّهِ، إذْ قال الأَسْيادُ قَوْلَهُم دونَ تَوْجيهٍ لِلأَتْباعِ، فَسَمِعَهُ الأَتْباعُ فَرَدّوه في وُجوهِهِم. ويُمْكِنُ أنْ تَكونَ عِبارَةً ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ كلامًا صادرًا مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ فَعِنْدَها يُقالُ: إنَّ الأَتْباعَ إذا سَمِعوا مِنَ الخَزَنَةِ هَذا الدُّعاءَ أَقْبَلوا عَلَى رُؤَسائِهِمْ قائِلينَ: يا رُؤَساءَ السّوءِ أَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ مِنّا لِإِغْوائِكُمْ إيّانا[1]. وعلى كِلا الحالينِ فإنَّ في ذَلِكَ دلالَةً على احتقارِ المَتْبوعينَ للأَتْباعِ، حَتَّى إنَّهُم يَسْتَنْكِفونَ عنْ أنْ يوَجِّهوا لَهُم الخِطابَ. وأمّا تَصْريحُ الأَتْباعِ بِضَميرِ الخِطابِ فَفيهِ دلالَةٌ على جُرْأَةِ الأَتْباعِ على المَتْبوعينَ، ورَغْبَتِهِم في إبداءِ ما صُدورِهِم بتَوْجيهِ الشَّتْمِ لِمَنْ كانوا سَبَبًا في ضَلالِهِم.

عِلَّةُ فَصْلِ جملةِ ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾:

تعليلُ الدُّعاءِ على الظّالمين دليلُ وضوحِ المقامِ الأليمِ

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ جُمْلَةَ ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ عَنِ الجُمْلَةِ السّابِقَةِ عَلَيْها، وهي: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾، لأنَّ الجُمْلَةَ جاءَتْ تَعْليلًا لِما سَبَقَ مِنْ رَدِّ الدُّعاءِ عَلَيْهِم، واسْتِمْرارًا للمُحاوَرَةِ الدّائِرَةِ بينَ الفَريقينِ المُتَلاوِمَينِ. فجُمْلَةُ ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ عِلَّةٌ لِقَلْبِ سَبَبِ الشَّتْمِ إلَيْهِم، أيْ: لِأَنَّكم قَدَّمْتُمُ العَذابَ لَنا[2].

نُكْتَةُ تَكْرارِ ضَميرِ ﴿أَنتُمْ﴾:

كَرَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ ضَميرَ الخِطابِ ﴿أَنتُمْ﴾ في جُمْلَةِ: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ بَعْدَ أنْ سَبقَ ذِكْرُهُ في جُمْلَةِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾؛ للتأكيد، إذْ إنَّ تأكيدَ الضَّميرِ المنفصلِ بمثلِهِ يُعَدُّ تأكيدًا لفظيًّا،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 307..

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 290.

كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ [النمل: 3][1]، وهنا جاءَ تَكرارُ الضَّمير ﴿أَنتُمۡ﴾ لِتأكيدِ تَوْجيه الخِطابِ إلى المَتْبوعينَ الَّذينَ بادَؤوهُم بالشَّتْمِ والاحتقارِ والتَّنَقُّص، ولِبيانِ رَغْبَةِ الأَتْباعِ في لَوْمِ المَتْبوعينَ وإلْقاءِ تَبِعَةِ الشَّقاءِ عَلَيْهِم. وفيه كذَلِكَ مَزيدُ بيانٍ لِجُرْأَةِ الأَتْباعِ، وسُقوطِ هَيْبَةِ المَتْبوعينَ وضَياعِ مَكانَتِهم، فهو دالٌّ على الشُّعور بالقهرِ النّفسيِّ الّذي مرَّ به الأَتْباعُ في المحاورةِ.

التكرارُ لِتأكيدِ تَوْجيه الخِطابِ، ولِبيانِ رَغْبَةِ الأَتْباعِ في لَوْمِ المَتْبوعينَ

بَلاغَةُ المجازِ في اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾:

في مَعْرِضِ إظْهارِ التَّلاوُم اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ مُفْرَدَةَ التَّقديم، في جُمْلَةِ: ﴿أَنتُمۡ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾، والمُرادُ بالتَّقْديم: جَعْلُ الشَّيءِ قُدّامَ غَيْرِه، كما قالَ تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الأنفال: 50 - 51]، فَتَقْديمُ العَذابِ لَهم جَعْلُهُ قُدّامَهم، أيْ: جَعْلُهُ حَيْثُ يَجِدونَهُ عِنْدَ وُصولِهِمْ. وإسْنادُ تَقْديمِ العَذابِ إلى المُخاطَبينَ مَجازٌ عَقْليٌّ لأنَّ الرُّؤَساءَ كانوا سَبَبًا في تَقْديمِ العَذابِ لأَتْباعِهِمْ بإغْوائِهِمْ وكانَ العَذابُ جَزاءَ الإغْواءِ. وجُعِلَ العَذابُ مُقَدَّمًا وإنَّما المُقَدَّمُ العَمَلُ الَّذي اسْتَحَقَّ العَذابَ، وهَذا مَجازٌ عَقْليٌّ في المَفْعولِ فاجْتَمَعَ في قَوْلِه: ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ مَجازانِ عَقْليّانِ[2].

الرُّؤَساءُ سَبَبٌ في تَقْديمِ العَذابِ لِأَتْباعِهِم، والعَذابُ جَزاءُ الإغْواءِ

غَرَضُ تَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ ﴿أَنتُمۡ﴾ عَلَى المُسْنَدِ الفِعْليِّ ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾:

قَدَّمَ النَّظْمُ في جُمْلَةِ: ﴿أَنتُمۡ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ المسندَ إليه على المُسْنَدِ الفِعْليِّ ﴿أَنتُمۡ﴾ لإفادَةِ الحَصْرِ، أيْ: لَمْ يُضِلَّنا غَيْرُكم فَأَنْتُمْ أحقّاءُ بالعَذابِ[3]، وفي ذَلِكَ تأكيدٌ لِشِدَّةِ التَّلاوُمِ والبُغْضِ بينَ الأَتْباعِ والمَتْبوعينَ، وتَحْميلُ الأَتْباعِ لهؤلاءِ السّادَةِ نَصيبَهُم في سوءِ المَآلِ

عند الإفلاسِ يتبيّن الإبلاسُ

(1) البَدَوِيّ، من بلاغة القرآن، ص: 114.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 290.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 290.

الَّذي انْتَهَوْا إليْه، والصَّحيحُ أنَّ الأمرَ لم يقتصرْ على المتْبوعينَ، بل هم شُركاءُ في الجريمةِ، ولكنْ هذا حالُ المُفْلِسِ في إلقاءِ تَبِعَةِ جرائِمِهِ على غيرِه.

تَعْيينُ مَرْجِعِ الضَّميرِ:

مرجعُ الضَّميرِ إلى ما لاقاه المتبوعون وأتباعُهم في الآخرةِ

يحتملُ أن يرجعَ ضَميرُ النَّصْبِ (الهاءِ) في ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾؛ إلى العَذابِ المَفْهومِ ممّا قَبْلَهُ، أوْ إلى المَصْدَرِ الَّذي تَضَمَّنَهُ، وهو الصَّلْيُ، أيْ: أنْتُمْ قَدَّمْتُمُ العَذابَ أوِ الصَّلْيَ[1]، ويحتملُ أنَّهُ عائدٌ إلى الاقْتِحامِ في العَذابِ؛ أي: بما أقْحَمْتُمونا فيهِ مِن أسْبابِهِ؛ وقَدَّمْتُمْ في دارِ الغُرورِ مِن تَزْيينِهِ[2]. وأشارَ الرّازيّ إلى أنَّ الضَّميرَ كِنايَةٌ عَنِ الطُّغْيانِ الَّذي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾[3]. وهَذِهِ الأقوالُ ترْجِعُ في حقيقَتِها إلى العَذابِ أو إلى سَبَبٍ مِنَ الأسْبابِ الَّتي أدَّتْ إلى الوُقوعِ فيه.

نَوْعُ اللّامِ ودلالتُها:

إلقاءُ التَّبِعَةِ على الآخرين مَسلكُ المفلسين

جاءَتِ اللّامُ الدّاخلةُ على نونِ الجَمْعِ في جُمْلَةِ ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ لإفادَةِ الاخْتِصاصِ، فهيَ دالّةٌ على اخْتِصاصِ العَذابِ بهَؤلاءِ الأتْباعِ، فكانَ لِسانُ حالِ الأتْباعِ يقول: دُخولُنا النّارَ تمَّ بإغْوائِنا، وإغْرائِنا بسببِ ما قَدَّمه المتبوعون مِنَ العَقائِدِ الزّائِغَةِ، والأعْمالِ السَّيِّئَةِ، لا أنّا باشَرْناها مِن تِلْقاءِ أنْفُسِنا[4]، فهي دالَّةٌ على الحسرةِ وشديدِ النّدامةِ، مع ما فيه من إلقاءِ التّبِعَةِ على غيرِهم، للتَّخفيفِ من ألَمِ المُصاب، وللتَّنفيسِ عن بؤسِ اللّقاء.

نَوْعُ الفاءِ ومعناها:

جاءَتِ الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ نَتيجَةً، وهوَ نَظيرُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 290.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 409.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 405.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207.

عَطْفِ الجُمَلِ بِـ (ثُمَّ)، وهي كالفاءِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ [الأنفال: 17] بَعْدَ قَوْلِهِ ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ [الأنفال: 15]، فقَوْلُهُ: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ مَوْقِعُهُ كَمَوْقِعِ قَوْلِهِ آنِفًا ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، وهو ذَمٌّ لِإقامَتِهِمْ في جَهَنَّمَ تَشْنيعًا عَلَيْهِمْ فيما تَسَبَّبوا لِأَنْفُسِهِمْ فيهِ. والمَعْنى: فَبِئْسَ القَرارُ ما قَدَّمْتُموهُ لَنا، أيْ: العَذابُ[1].

تَرَتُّبُ البؤسِ في القرارِ على الإغواءِ بالأعمالِ الفاسِدَةِ

بَلاغَةُ جُمْلَةِ الذَّمِّ ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾:

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ عنْ مَصيرِ الطّاغينَ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾، فاسْتَعْمَلَ فِعلَ (بِئْسَ) الدّالَ على الذَّم، وهوَ فِعْلٌ جامِدٌ، لا يدْخُلُه التَّصْريفُ، وأصْلُه من البُؤْسِ، وقدْ دَلَّ التَّعبيرُ بأسلوبِ الذَّمِ على سوءِ المآلِ، وقُبْحِ المَرْجِعِ، وشِدَّةِ المَصيرِ، فَنَبَّه على سوءِ المَصيرِ وحَذَّرَ منْ مَغَبَّةِ الاتِّباعِ الأعمَى، والمُرادُ: فَبِئْسَ المَقَرُّ جَهَنَّمُ، وهو من كَلامِ الأتْباعِ، وكَأنَّهم قَصَدوا بذَلِكَ التَّشَفّيَ والإنْكاءَ، وأنَّ ذَلِكَ المَقَرَّ مُشْتَرَكٌ، وقيلَ: قَصَدوا بالذَّمِّ المَذْكورِ تَغْليظَ جِنايَةِ الرُّؤَساءِ عَلَيْهِمْ[2].

نَبَّهتْ جَملَةُ الذَّمِ على سوءِ المَصيرِ وحَذَّرَتْ منْ مَغَبَّةِ الاتِّباعِ الأعْمَى

دَلالَةُ تَعْريفِ لَفْظِ ﴿ٱلْقَرَارُ﴾:

جاءتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلْقَرَارُ﴾ مُعَرَّفَةً بِلامِ العَهْدِ، والمَعْهودُ مَعْروفٌ، لِكَوْنِه مذْكورًا، وهوَ النّارُ، ومنْ أغْراضِ ذِكْرِه وتَعْريفِه: التَّهَكُّمُ؛ إذْ لَمّا كانَ الاقْتِحامُ؛ وهو الوُثوبُ؛ أوِ الدُّخولُ عَلى شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ؛ كَأنَّها الوُثوبُ؛ يَنْتَهي مِنهُ إلى اسْتِقْرارٍ؛ وكانَ الفَريقانِ قَدِ اسْتَقَرّوا في مَقاعِدِهِمْ في النّارِ؛ سَبَّبوا عَنْ ذَلِكَ قَوْلَهُمْ: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾؛ أيْ: قَرارُكم[3].

القرارُ معهودٌ بالعذابِ الموعودِ

بَلاغَةُ فَصْلُ الآيَةِ عنْ سابِقَتِها:

فَصَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ جُمْلَةَ: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 290.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 208.
(3) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 409.

التَّوكيدُ اللَّفْظيُّ مِنْ أسبابِ الفَصْلِ وانتفاءِ الوَصْلِ

عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾، والجُمْلَةَ السّابِقَةَ عَلَيْها، وهيَ مِنْ كَلامِ الأتْباعِ كذَلِكَ، لإرادَةِ التَّوكيدِ اللَّفْظيِّ، والتَّوْكيدُ اللَّفْظيُّ عَلى مِثالِ المُؤَكَّدِ. وذلك حَتَّى لا تَلْتَبِس حِكايَةُ هَذا القَوْلِ عَلى هَذِهِ الكَيْفيَّةِ بِحِكايَةِ المُحاوَراتِ فَيُحْسَبُ أنَّهُ مِن كَلامِ الفَريقِ الآخَرِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ بِعُنْوانِ ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ يُعَيِّنُ أنَّ قائِليهِ هُمُ القائِلونَ ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾، وأنَّ الَّذينَ قَدَّموه لَهم هُمُ الطّاغونَ. وفي مَعْنى هَذِهِ الآيَةِ آيَةُ سورَةِ الأعْرافِ ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 38][1].

وَجْهُ إعادَةِ فِعْلِ ﴿قَالُواْ﴾:

أُعيدَ الفِعْلُ لِتَأْكيدِ أنَّ القائِلينَ هُمُ الأتْباعُ، ولِتَغَيُّرِ المُخاطَبِ في الجُمْلَتينِ

في جُمْلَةِ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾، أعادَ النَّظْمُ الحكيمُ فِعْلَ القَوْلِ: ﴿قَالُواْ﴾ والضَّميرُ عائِدٌ على الفَوْجِ المُقْتَحِمِ، وهو فَوْجُ الأتْباعِ، فَهوَ مِن كَلامِ الَّذينَ قالوا: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ في الآيَةِ السّابِقَةِ؛ لأنَّ قَوْلَهم ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ يُعَيِّنُ هَذا المَحْمَلَ، ولِذَلِكَ حُقَّ أنْ يَتَساءَلَ النّاظِرُ عَنْ وجْهِ إعادَةِ فِعْلِ ﴿قَالُواْ﴾ وعَنْ وجْهِ عَدَمِ عَطْفِهِ عَلى قَوْلِهِمُ الأوَّلِ. فَأمّا إعادَةُ فِعْلِ القَوْلِ فَلإفادَةِ أنَّ القائِلينَ هُمُ الأتْباعُ فَأُعيدَ الفِعْلُ تَأْكيدًا لِلْفِعْلِ الأوَّلِ لِقَصْدِ تَأْكيدِ فاعِلِ القَوْلِ تَبَعًا لِأنَّهُ مُحْتَمِلٌ لِضَميرِ القائِلينَ. والمَقْصودُ مِن حِكايَةِ قَوْلِهِمْ هَذا؛ تَحْذيرُ كُبَراءِ المُشْرِكينَ مِن عَواقِبِ رِئاسَتِهِمْ وزَعامَتِهِمُ الَّتي يَجُرّونَ بِها الوَيْلاتِ عَلى أتْباعِهِمْ فَيوقِعونَهم في هاوِيَةِ السّوءِ؛ حَتّى لا يَجِدَ الأتْباعُ لَهم جَزاءً بَعْدَ الفَوْتِ إلّا طَلَبَ مُضاعَفَةِ العَذابِ لَهم[2]. وأشارَ الآلوسيّ إلى أنَّ تَوَسيطَ الفِعْلِ بَيْنَ كَلامَيْهِمْ حاصِلٌ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّبايُنِ ذاتًا وخِطابًا، أيْ: قالوا مُعْرِضينَ عَنْ خُصومَةِ رُؤَسائِهِمْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 291.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 291.

مُتَضَرِّعينَ إلى اللهِ ﷻ: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾[1].

نُكْتَةُ حَذْفِ حَرْفِ النِّداءِ:

تَعَجُّلُ الأتْباعِ في الدُّعاءِ على الرُّؤَساءِ تَنْفيسًا لِغَيْظِهِم

حذفَ النَّظْمُ الحكيمُ حَرْفَ النِّداءِ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ لِبَيانِ عَجَلَةِ الأتْباعِ في التَّحَوُّلِ عَنْ مُحاوَرَةِ المَتْبوعينَ من زُعَماءِ الكُفْرِ ورُؤَساءِ الشِّرْكِ، ورَغْبَتِهم في الإسراعِ إلى الدُّعاءِ عَلَيْهِم، بِقَصْدِ الفَراغِ مِنَ الكَلامِ بِسُرْعَةٍ، لأنَّهم عَلِموا أنَّ سَبَبَ ما وصَلوا إلَيْهِ مِنَ الشَّقاءِ هو الرُّؤَساءُ؛ وكانَ هَذا موجِبًا لِنِهايَةِ غَيْظِهِمْ مِنهُمْ؛ فَلَمّا عَلِموا أنَّهم لا يَقْدِرونَ عَلى الانْتِقامِ مِنهم عَمَدوا إلى الضَّراعةِ للهِ بِمُضاعَفَةِ عَذابِهم وشَقائِهم في النّارِ[2].

دلالَةُ اسْتِعْمالِ عُنْوانِ الرُّبوبيَّةِ في النِّداءِ:

مِنْ أرْضَى الدُّعاءِ إلى اللهِ أنْ يُنادِيَ العَبْدُ رَبَّهُ بِقَوْلِهِ يا رَبِّ

في جُمْلَةِ ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا﴾ استعملَ النَّظْمُ الحكيمُ عُنْوانَ الرُّبوبيَّةِ في النِّداءِ، وذلكَ لأنَّ الدُّعاءَ في أكْثَرِ الأمورِ في القرآنِ مَذْكورٌ بِلَفْظِ ﴿رَبَّنَا﴾، إذْ إنَّ مِنْ أرْضَى الدُّعاءِ إلى رَبِّ العِزَّةِ جَلَّ وعَزَّ أنْ يُنادِيَ العَبْدُ رَبَّهُ بِقَوْلِهِ: (يا رَبِّ)، وفي لَفْظِ (الرَّبِ) مَعْنًى دَقيقٌ، فَكَأنَّ العَبْدَ يَقولُ: (كُنْتُ في كَتْمِ العَدَمِ المَحْضِ والنَّفْيِ الصِّرْفِ، فَأخْرَجْتَني إلَى الوُجودِ، ورَبَّيْتَني فاجْعَلْ تَرْبِيَتَكَ لي شَفيعًا إلَيْكَ في أنْ لا تُخَلِّيَني طَرْفَةَ عَيْنٍ عَنْ تَرْبِيَتِكَ وإحْسانِكَ وفَضْلِكَ)[3]. فَجَرَى كَلامُ الأتْباعِ على هذا السَّنَنِ رَغْبَةً في الاسْتِجابَةِ لِكَي تَشْتَفي صُدورُهم.

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ المَوْصولِ ﴿مَن﴾:

في جُمْلَةِ ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 208.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 409.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 490 - 491.

الـدُّعـاءُ على أصحابِ الإغواءِ الظّاهر والباطن

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ الاسمَ المَوصول ﴿مَن﴾، لأنَّ التَّعبير بـ(مَنْ) يكون محتملًا عدةَ معانٍ في آنٍ واحدٍ؛ بخلافِ (الّذي)[1]، فهي - أي (مَنْ) - تَقَعُ على المُفْرَدِ، والمُثَنَّى، والجَمْعِ، والمُذَكَّرِ، والمُؤَنَّثِ، فَفيها من العُمومِ ما يُناسبُ كَثْرَةَ الطّاغينَ الَّذينَ يُضِلّونَ الأتْباعَ، ولم يستعمل (الذي) ليدخلَ في الدُّعاءِ من كان ظاهرًا في إغوائِه كالمتبوعينَ، ومَنْ كان خفيًّا مِنَ المشركينَ.

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ الماضي:

التَّحَسُّرُ على انْقِضاءِ مُهْلَةِ العَمَلِ في الدُّنيا وسوءِ المآلِ في الآخرةِ

في جُمْلَةِ ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا﴾ اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ الفِعْلَ ﴿قَدَّمَ﴾ ومعناه: سَنَّهُ وشَرَعَهُ[2]، وأقتعَ به، في صيغَةِ المُضيِّ، للدّلالَةِ على انْقِضاءِ مُهْلَةِ العَمَلِ في الدُّنيا، وأنَّ الزُّعَماءَ والرُّؤَساءَ قدْ أفْسَدوا حَياةَ أتْباعِهم في الدُّنيا، فَلا رَجاءَ لَهُم في إصْلاحِ ما فَسَدَ باتِّباعِهم الأعْمَى، فَوَقَعوا في هاويَةِ السّوءِ، فأفادَ التَّعبيرُ بِصيغَةِ المُضيِّ التَّحَسُّرَ والتَّنَدُّمَ حينَ لا تَنْفَعُ الحَسْرَةُ ولا النَّدامَةُ.

نَوْعُ اللّامِ ومَعْناها:

الشُّعورُ بالغُبنِ عند فواتِ الأوانِ مـذاقٌ لاذِعٌ وطعمٌ حارقٌ

جاءَتِ اللّامُ الدّاخلةُ على نونِ الجَمْعِ في جُمْلَةِ ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ لإفادَةِ الاخْتِصاصِ، فهي دالّةٌ على اخْتِصاصِ فَسادِ حَياةِ هَؤلاءِ الأتْباعِ، فكانَ لِسانُ حالِ الأتْباعِ: أفْسَدَ الزُّعَماءُ حَياتَنا، بإغْرائِهم لَنا عَلى ما قَدَّمْنا مِنَ العَقائِدِ الزّائِغَةِ، والأعْمالِ السَّيِّئَةِ لا أنّا باشَرْناها مِن تِلْقاءِ أنْفُسِنا[3].

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ للقَريبِ وتَكْرارِهِ:

تصويرُ معاني الغفلةِ وتجسيدُ حقائقِ البؤسِ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ اسمَ الإشارةِ ﴿هَذَا﴾ للقَريبِ، وهوَ يَعودُ على ضَميرِ الهاءِ في ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾، أي: هوَ عائِدٌ على العَذابِ أو

(1) السَّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 138.
(2) المَاوَرْدِيّ، النُّكَت والعيون: 5/ 108.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207.

الصَّلْي أو اقْتِحام النّارِ أوِ الطُّغيانِ المُسَبِّبِ لسوءِ المَآلِ، أي: مَنْ قَدَّمَ لَنا العَذابَ أو الصَّلْيَ أو سَبَبًا أسبابِه. واستعمالُ اسمِ الإشارةِ فيه تصويرٌ للحقائقِ وتجسيدٌ للمعاني، وإيماءٌ إلى رؤيةِ الأتباعِ للعذابِ المعنويِّ في أجْلَى صوَرِهِ الَّتي غَفِلوا عنها في الدُّنيا، وأدْرَكَها عِلْمُهم في الآخرة.

نَوْعُ الفاءِ ودَلالَتُها:

جاءتِ الفاءُ في جُملَةِ: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا﴾ واقِعَةً في جَوابِ الشَّرْطِ[1]، فاقْترانُ الخَبَرِ بالفاءِ جَرَى عَلى مُعامَلَةِ المَوْصولِ مُعامَلَةَ الشَّرْطِ في قَرْنِ خَبَرِهِ بالفاءِ، وهو كَثيرٌ[2].

دلالَةُ استعمالِ لَفْظِ الزِّيادَةِ:

شِـدَّةُ غَـيْـظِ الأتْـبـاعِ تُـظـهِـرُ عظيمَ حقدِهم وشديدَ عُتوِّهم

في قوله تعالى: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا﴾ طلبَ الأتباعُ زيادةَ العذابِ للمتبوعين، والزِّيادَةُ تعني أنْ يَنْضَمَّ إلَى شَيْءٍ آخَرَ ما عَلَيْهِ الشَّيْءُ في نَفْسِه[3]، وقدْ دَلَّ التَّعبيرُ بلَفْظِ الزِّيادَةِ في جُمْلَةِ: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا﴾ على أنَّ الأتْباعَ يَتَضَرَّعونَ أنْ يُصيبَ الطّاغينَ عَذابٌ آخَرُ فَوْقَ عَذابِ الأصْلِ الَّذي اسْتَحَقّوهُ بِكُفْرِهم؛ لِكَوْنِهم قَدَّموا الكُفْرَ والضَّلالَ والصَّلْيَ لأتْباعِهم، فَكانَ هذا التَّضَرُّعُ بِزيادَةِ العَذابِ أثرًا من آثارِ شِدَّةِ غَيْظِ الأتْباعِ من إضْلالِ الزُّعَماءِ لَهُم.

نُكْتَةُ التَّصْريحِ بِلَفْظِ العَذابِ:

تصوير الحالة النّفسيّة للأتباعِ إثْـرَ استحضار أحداثِ الدُّنيا

في جُمْلَةِ: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ صَرَّحَ النَّظْمُ الحكيمُ بِلَفْظِ ﴿عَذَابًا﴾ دون الاكتفاءِ بصفته، فلم يقل: (فَزِدْهُ ضِعْفًا في النّارِ)، فالتَّصْريح عادةً أعْظَمُ وقْعًا في النُّفوسِ مِنَ التَّعْريضِ الإجْماليِّ[4]، والتَّصْريحُ هنا أشارَ به إلى اسْتِفْظاعِ الأتْباعِ لِما هُم فيه مِنَ العَذابِ

(1) الخطيب ومصلوح وآخرون، التّفصيل: 23/ 308.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 291.
(3) الرّاغب، المفردات: (زاد).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 309.

الشَّديدِ والنَّكالِ المُهينِ، فَصَرَّحوا في ضَراعَتِهم بِما أصابَهُم مِنْ سوءِ المَآلِ، ويوحي ذكرُ لفظِ العذابِ بالحالةِ النّفسيّة الّتي يعيشها الأتباعُ في النّار إثْرَ ملاقاةِ المتبوعين، واستحضارِ مشاهدِ الدُّنيا، وما بذلوه لهم من عظيمِ الجرائم، وكبيرِ البلاءِ في معاداة الرُّسُلِ وأتباعهم، فلم يُغْنِ عن ذلك إلّا رفعُ أكُفِّ الدُّعاءِ بإنزالِ العذابِ بالمتبوعين ضِعْفَ ما نزلَ بهم.

غَرَضُ تَنْكيرِ ﴿عَذَابًا﴾:

التَّنْكيرُ للتَّهْويلِ والتَّعْظيمِ والتَّفْخيمِ منْ شأنِ عذابِ النّارِ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿عَذَابًا﴾ في جُملَةِ ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ نَكِرَةً للتَّهْويلِ والتَّعْظيمِ والتَّفْخيمِ، فَكانَ تَعْبيرُ الأتْباعِ بِهَذِهِ الصّيغَةِ إشارَةً إلى أمرينِ؛ **الأوَّلُ:** شِدَّةُ عَذابِهم في النّار، **والآخَرُ:** شِدَّةُ غَيْظِهِم مِمَّنْ أضَلّوهُم، فأوْرَدوهُمُ النّارَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ التَّنْكيرُ لِبَيانِ النَّوْعيَّةِ، أي: زِدْهُم نَوْعًا مِنَ العَذابِ مُغايرًا للمَعْهودِ مِنْهُ، فَيكونُ أشَدَّ مِمّا هُم فيهِ[1].

دلالَةُ الوَصْفِ بِقَوْلِه: ﴿ضِعْفًا﴾:

عـذابُ الإضـلالِ ضعفٌ آخرُ فوق عذابِ الضَّلالِ

في جُمْلَةِ: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ جاءَ النَّظْمُ بِوَصْفِ العَذابِ بأنَّهُ ضِعْفٌ، وضِعْفُ الشَّيءِ هو الّذي يُثَنّيهِ[2]، وقدْ دَلَّ التَّعبيرُ بِوَصْفِ العَذابِ بالنّارِ على إضافَةِ مِثْلِهِ إليه، ونَظيرُهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: 38] وكَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: 67 - 68]، وهوَ مِصْداقُ قولِ رسول اللّهِ ﷺ: «ومَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِلَ بِها إلى يَوْمِ القيامَةِ»[3]، والمَعْنى أنَّهُ يَكونُ أحَدُ القِسْمَيْنِ عَذابَ الضَّلالِ، والثّاني

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 224.
(2) الرّاغب، المفردات: (ضعف).
(3) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزّكاة، باب الحثّ على الصّدقة، حديث رقم: (2398).

عَذابَ الإضْلالِ[1]؛ فالأتباعُ ذاقوا عذابَهم بسببِ إضلالِ المتبوعين لهم وإغوائِهم، فهذا هو الضِّعْفُ الّذي أرادوه، ليَرَوا في ذلك تَنْفيسًا عن ألَمِهِمُ المعنويِّ، وعذابِهِمُ النَّفسيِّ.

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ حَرْفِ الظَّرْفيَّةِ:

إحاطَةُ النّارِ بالطّاغينَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، فَهُم كائِنونَ فيها

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ حَرْفَ الجرِّ ﴿فِي﴾ في جُمْلَةِ ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ بمعناهُ البلاغيِّ الأصليِّ، أيْ على سَبيلِ الحقيقيةِ الظَّرْفيَّةِ، لا المجاز[2]؛ ليُفيدَ إحاطَةَ النّارِ بِهِم مِنْ كُلِّ جانِبٍ، فَهُم كائِنونَ فيها، وهيَ مُشْتَمِلَةٌ علَيْهِم اشْتِمالَ الظَّرفِ للمَظْروفِ، لا يَنْفَكّونَ عَنْها لا يُفارِقونَها.

مَعْنَى تَعْريفِ لَفْظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

(ال) التَّعريف إشارَةٌ إلى المَعْهودِ الذِّهْنيِّ في دارِ الشَّقاءِ

عَرَّفَ النَّظْمُ الجَليلُ مُفْرَدَةَ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في جُمْلَةِ: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ بِـ (ال) العَهْديّة، والعربُ إذا قدَّمَتْ اسْمًا ثُمَّ حَكَتْ عنه ثانيًا، أتَوا به مُعرَّفًا بـ(ال)[3] الّتي تُسمَّى (ال) العهديَّةُ، إشارَةً إلى المَعْهودِ الذِّهْنيِّ، أي هنا: دارِ الشَّقاءِ المَعْروفَةِ، الَّتي هي النّارُ، الَّتي يَمْكُثُ فيها الأتْباعُ والزُّعَماءُ على حَدٍّ سواءٍ، إلى أنْ يَشاءَ اللّهُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشَّكْلُ والمِثْلُ:

الشَّكْلُ والمِثْلُ يُستَعْمَلُ في الصّورِ، والمِثْلُ في باقي الصِّفاتِ

الشَّكْلُ هوَ الَّذي يُشْبِهُ الشَّيْءَ في أكثرِ صِفاتِهِ حَتَّى يُشْكِلَ الفَرقُ بَينهما، ولا يُسْتَعْمَلُ الشَّكْلُ إلّا في الصّورِ، فَيُقال هَذا الطّائِرُ شَكْلُ هَذا الطّائِرِ، ولا يُقالُ: الحَلاوَةُ شَكْلُ الحَلاوَةِ. وأمّا مِثْلُ الشَّيْءِ فَهوَ ما يُماثِلُهُ في ذاتِهِ، فالمِثْلانِ ما تَكافَآ في الذّات[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 405.
(2) حسن، النحو الوافي: 2/ 537.
(3) ابن عادل، اللّباب: 19/ 474.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 154.

الفَوْجُ والجَماعَةُ:

الفَوجُ اسْمُ جَمْعٍ كَقَومٍ ورَهْطٍ[1]، فَهيَ تَدُلُّ على تَجَمُّعٍ مُنْفَصِلٍ عنْ تَجَمُّعٍ غَيْرِه بِقوَّةٍ وانْتِشارٍ ما. وهي تَنْفَرِدُ ببعضِ الدَّلالاتِ لا توجدُ في غيرِها، فالفَوْجُ الجَماعَة الكَثيرَة ومِنْه قَوْله تعالى ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: 2]، وذَلِكَ أنهم كانوا يُسْلِمونَ في وقت نُزولِ هَذِه الآيَةِ قَبيلَةً قَبيلَةً. ولا يُقال لِلثُّلَّةِ فَوْجٌ، كَما يُقال لَهُم جماعَةٌ، والثُّلَّةُ الجَماعَةُ تَنْدَفِعُ في الأمرِ جُمْلَةً. والزُّمْرَةُ جَماعَةٌ لَها صَوتٌ لا يُفْهَمُ، وأَصْلُهُ مِنَ الزِّمارِ، وهوَ صَوت الأُنْثَى مِنَ النَّعام، ومِنْه قيلَ الزَّمْرَةُ. وقَريبٌ مِنْها الزِّجْلَةُ، وهي الجَماعَة لَها زَجَلٌ، وهوَ ضَرْبٌ مِنَ الأصواتِ، والحِزْبُ الجَماعَةُ تَتَحَزَّبُ عَلَى الأمْرِ، أي: تَتَعاوَنُ، وحَزَبَ الرَّجُلُ الجَماعَةَ الَّتي تُعينُهُ، فَيَقْوَى أمْرُه بِهِم وهوَ من قَوْلِكَ حَزَبَني الأمرُ إذا اشْتَدَّ عَليّ[2].

الفَوْجُ الجَماعَةُ الكَثيفَةُ المُسْرِعَةُ، والجَماعَةُ كُلُّ جَمْعٍ قَلَّ أو كَثُرَ

الاقْتِحامُ والدُّخولِ:

الاقْتِحامُ الدُّخولُ في الأمْرِ الشَّديدِ أو في أمْرٍ بِشِدَّةٍ مِنْ غَيْرِ تَهيُّؤٍ أوْ تَهْيِئَةٍ، أو اخْتِيارٍ أوْ رَوِيَّةٍ أوْ إعْدادٍ أوْ إذْنٍ[3]، كَما في قَوْلِه تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [البلد: 11]، و﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾، وقَحَّمَ الفرسُ فارِسَهُ: توَغَّلَ بِهِ ما يَخافُ عَلَيْه، وقَحَمَ فُلانٌ نَفْسَهُ في كَذا مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، والمَقاحيمُ الَّذينَ يَقْتَحِمونَ في الأمْرِ. وأمّا الدُّخولُ فَهوَ وُلوجُ الشَّيْءِ أوْ تَغَلْغُلُهُ في أثْناءِ شَيْءٍ[4]، وهوَ نَقيضُ الخُروجِ، ويُسْتَعْمَلُ ذَلِكَ في المَكانِ، والزَّمانِ، والأعْمالِ[5]، والعادَةُ أنَّ فيه لِيْنًا ودَعَةً ما لَمْ يَدُلَّ السِّياقُ على خِلافِه. وقد وصَفَ النَّظْمُ

في الاقْتِحامِ عُنْفٌ وعَجَلَةٌ، والدُّخولُ لا يُشترطُ فيه ذلك

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فوج).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 277.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قحم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دخل).
(5) الرّاغب، المفردات: (دخل).

الجَليلُ الفَوْجَ بِصِفَةِ الاقْتِحامِ للدّلالَةِ على أنَّ الطّاغينَ وأتْباعَهُم يَدْخُلونَ النّارَ جَماعاتٍ كَثيفَةً، مُشاةً مُسْرِعينَ؛ ويَكونونَ مِن شِدَّة ما تَدْفَعُهُمُ الزَّبانيَةُ عَلى هَيْئَةِ الواثِبِ لِشِدَّةِ هَوانِهِم وذُلِّهِم.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»